نصٌّ أم نصوص؟

د. السيد عيسى الوداعي

(بنا اهتديتُمْ في الظَّلْمَاءِ، وَتَسَنّمْتُمُ العَلْيَاءَ، وَبِنَا انْفَجَرْتُمْ عَنِ السَّرارِ. وُقِرَ سَمْعٌ لَمْ يَفْقَهِ الوَاعِيَةَ. وَكَيْفَ يُراعِي النَّبْأَةَ مَنْ أَصَمَّتْهُ الصَّيْحَةُ؟ رُبِطَ جَنانٌ لَمْ يُفَارِقْهُ الخَفَقَانُ. مازلتُ أَنْتَظِرُ بِكُمْ عواقبَ الغَدْرِ. وأَتَوَسَّمُكُمْ بِحِلْيَةِ المُغْتَرِّيْنَ. سَتَرَنِي عَنْكُمْ جِلْبابُ الدِّيْنِ، وَبَصَّرَنِيْكُمْ صِدْقُ النِّيَّةِ. أَقَمْتُ لَكُمْ على سَنَنِ الحَقِّ في جَوَادِّ المَضَلّةِ، حَيْثُ تَلْتَقُوْنَ ولا دَلِيْلَ، وَتَحْتَفِرُونَ ولا تُمِيْهُوْنَ. اليومَ أُنْطِقُ لَكُمُ العَجْمَاءَ ذاتَ البَيَانِ. غَرَبَ رَأْيُ امْرِئٍ تَخَلَّفَ عنِّي. ما شَكَكْتُ في الحقِّ مُذْ أُرِيْتُهُ. لَمْ يُوْجِسْ موسى عليهِ السَّلامُ خِيْفَةً على نَفْسِهِ. أَشْفَقَ مِنْ غَلَبَةِ الجُهَّالِ، وَدُوَلَ الضَّلالِ. اليومَ تَواقَفْنَا على سَبِيْلِ الحَقِّ والبَاطِلِ. مَنْ وَثِقَ بِماءٍ لَمْ يَظْمَأْ)[1].

إنّ محاولة إثبات تماسك هذا النص من خلال تتبُّع أدوات التماسك النحوية أو المعجمية ستقود إلى نتيجةٍ مفادها أنّ هذا النصَّ غير متماسك؛ إذ لا رابط بين جمله وقضاياه بعضها ببعض، فما العلاقة بين قوله –على سبيل المثال– (رُبِطَ جَنانٌ لم يفارقه الخفقان) وما سبقه من جمل؟ وما العلاقة بين قوله (من وثق بماءٍ لم يظمأ) والجمل السابقة؟

إنّ هذه الجمل تبدو غريبة عما يسبقها من جمل، وتبدو غريبة عمّا يتلوها من جملٍ كذلك، ومن هنا رَأَى ابنُ أبي الحديد في هذا النصّ أنّه مجزّأ مأخوذٌ من خطبةٍ طويلةٍ، فقال: "هذه الكلمات والأمثال ملتقطة من خطبة طويلة، منسوبةٍ إليه عليه السلام، قد زاد فيها قومٌ أشياء حَمَلَتْهُمْ عليها أهواؤهم، لا توافق ألفاظُها طريقتَه عليه السلام في الخُطَبِ، ولا تناسب فصاحتُها فصاحتَه"[2].

في حين نجد شارحًا آخر يقف موقف الضدّ من ابن أبي الحديد، فهذا النص الذي رأى فيه ابن أبي الحديد أنّه (كلماتٌ وأمثال ملتقطة من خطبة طويلة)، هو نفسه الذي يقول فيه ابن ميثم البحرانيُّ: "هذه الخطبة من أفصح كلامه –عليه السلام– وهي مع اشتمالها على كثرة المقاصد الواعظة المحرّكة للنفس في غاية وجازة اللفظ،

---

[1] نهج البلاغة 1/ 38-39

[2] ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة 1/ 208

ثم مِنْ عجيبِ فصاحتِها وبلاغتِها أنّ كلّ كلمةٍ منها تصلح لأنْ تفيد على سبيل الاستقلال، وهي مع ما نذكره من حسن النظم، وتركيب بعضها مع بعض"[3].

إذن فنحن أمام موقفين متعارضين: يرى أولهما أنه نصٌّ مقطّع الأوصال، لا تربط بين جمله وقضاياه رابطة، إذ لا يعدو عن كونه أمثالا وُضِعَت جنبًا إلى جنب، في حين يرى الثاني أنّه نصٌّ متماسك، حسَنُ النظم، وغير مقطّع.

والواقع أنّ هذه قضية تحتاج إلى تجليةٍ تزيل ما قد تؤدي إليه من التباس، ولعلّ الاحتكام إلى عمل الشريف الرضيّ في (نهج البلاغة) يضيء بعض الجوانب، فنتمكّن من الحكم على هذا النصّ، إنْ كان متماسكًا أو مفكَّكًا.

لقد جعل الرضيّ هذا النصّ تحت عنوان (ومن خطبةٍ له عليه السلام)، ومعلومٌ أنَّ ديدن الرضيّ إذا أَوْرَدَ قطعة من الخطبة فإنه يصدِّرها بمن المفيدة للتبعيض، ثمَّ يذكر قطعة متكاملة في موضوعها، ولا يعمد إلى تقطيع أوصالها من الداخل، وإذا فَعَلَ فإنّه يعاود ذِكْرَ (من) التبعيضية مرّة أخرى، أي أنّ كلّ قطعة تتلو (من) مأخوذة من نصّ كامل، وتصلح أن تكون وحدة نصية كبرى، وأحيانا يكون الاقتطاع طويلا شاملا وحداتٍ نصيةً كبرى عدّة.

ثمّ إنّ منهج الرضي يقتضي أن يَذْكُرَ هذه (الكلمات والأمثال) لو كانت كذلك في قسم (الحكم والمواعظ)؛ إذ قسّم الرضيّ ما جمعه من كلام أمير المؤمنين –عليه السلام– أقسامًا ثلاثة، ذكرها في مقدّمة النهج، فقال: "ورأيت كلامه –عليه السلام– يدور على أقطابٍ ثلاثة: أوّلها الخُطَبُ والأوامر، وثانيها الكتب والرسائل، وثالثها الحِكَمُ والمواعظ"[4]

وقد أفرد القسم الثالث للنصوص الحِكْمِيَّةِ المأثورة عن عليٍّ –عليه السلام– وقد تتبَّع فيه ما أُثِرَ عن عليٍّ من حِكَمٍ قصيرةٍ، وجُمَلٍ جَرَتْ مجرى الأمثال وأثبتها، ولو كان النصّ هذا مجرّدَ أمثالٍ وكلماتٍ لَذَكَرَهَا في هذا القسم، ولم يكن لذكرها في باب الخطب وجهٌ.

---

[3] البحراني: شرح نهج البلاغة 1/ 333

[4] نهج البلاغة 1/ 12

إنّ عمل الشريف هذا ينبئ عن اعتقاده بتمام هذه الوحدة النصية وتماسك أجزائها، وإنْ بدا ظاهرها مفكَّكًا فلغياب سياق إنتاجها، وهو أمر فَطَنَ إليه بعض شُرّاح النهج، فراحوا يتتبّعون سياق هذا النص، ويتلمّسون أوجه تماسكه، وهو أمرٌ مَكّنهم من عَدِّهِ نصًّا متماسكا، ذا رسالة واضحة، يريد المرسل تبليغها لمتلقّي خطابه. وبالاعتماد على السياق نجد أنّ هذا النصّ –كغيره من نصوص النهج– يجري وفق الترتيب التصاعدي للأحداث، الذي مرَّ بنا في الدراسة الدلالية، الأمر الذي يعني عدم إمكان تغيير جُمَلِهِ؛ إذ تكون الأولى سببًا في حصول الثانية، والثانية نتيجةً للأولى، ولو كان هذا النصّ مجزّأً –كما يرى ابن أبي الحديد– لأمكننا تغيير مواضع الجمل، بالتقديم والتأخير وغير ذلك، باعتبارها جملا مستقلّة، لا يرتبط بعضها ببعض.

أمّا قول ابن أبي الحديد إنّ هذا النصّ قد زيد فيه فإنّي لم أقف على تلك الزيادة التي أشار إليها، على تتبعي إياها في مظانّها من كتب الشيعة، وغاية ما وجدتُ رواياتٍ لهذا النصّ باختلافات يسيرة، ولعلَّ أكثر الاختلاف جاء في رواية الشيخ المفيد (413هـ) إذ أثبت هذا النصّ كما يلي: (بنا تسنمتم الشرف، وبنا انفجرتم عن السرار، وبنا اهتديتم في الظلماء. وُقر سمع لم يفقه الواعية، كيف يراعي النبأة من أصمته الصيحة. رُبِطَ جَنَانٌ لم يفارقْهُ الخَفَقَانُ. مازلت أتوقّع بكم عواقب الغدر، وأتوسمكم بحلية المغترين. سترني عنكم جلباب الدين، وبصَّرَنيكم صدق النيّة. أقمت لكم الحقَّ حيث تعرفون ولا دليل، وتحتفرون ولا تميهون. اليوم أنطق لكم العجماء ذات البيان. غرب فهم امرئ تخلّف عني. ما شككت في الحق مذ أريته. كان بني يعقوب على المحجّة العظمى حتّى عقّوا أباهم، وباعوا أخاهم، وبعد الإقرار كانت توبتهم، واستغفار أبيهم وأخيهم، غفر لهم)[5]

ولعلّك لاحظت أنّ هذه الرواية لا تعدو أن تكون تصرّفا في بعض الموارد، كتأخير جملة (بنا اهتديتم في الظلماء) التي ابتدأ بها النصّ المثبت في نهج البلاغة، وكتكرار الضمير (بنا) قبل الأفعال الثلاثة الأولى في النصّ، وكانت رواية النهج قد اكتفت بذكر الضمير مرة واحدة قبل الفعل (اهتديتم).

---

[5] الشيخ المفيد: الإرشاد، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، العراق، الطبعة الثانية، 1972م، ص 148

ولعلّ أكبر تغيير في النصّ يقع في خاتمته؛ إذ ذكر المفيد خاتمة تختلف عن نهاية نصّ النهج، فنصّ النهج يتحدّث عن موسى حين أوجس خيفة من قومه، وقد ساق تعليل ذلك الخوف، أما نصّ (المفيد) فقد تحدّث عن بني يعقوب، وأنهم عقُّوا أباهم، وأنه استغفر لهم بعد إقرارهم بذنبهم.

والذي يبدو لي أنّنا لو وقفنا على النصّ المزيد الذي أشار إليه ابن أبي الحديد، لوجدنا أنّ من بين تلك الزيادات روابطَ شكلية ودلالية تجعل من تلك الجمل، التي بدا من ظاهرها التفكك وعدم الارتباط، جملا متسقة مكوِّنة نصًّا متماسكا.

ونجد هذه النزعة عند (المجلسي 1111هـ) فقد أورد هذا النصّ، وزاد فيه رابطين شكليين في موضعين اثنين:

أما أولهما فهو زيادة (حتّى) في قوله: (مازلت أنتظر بكم عواقب الغدر، وأتوسمكم بحلية المغترين **حتّى** سترني عنكم جلباب الدين)

وأمّا ثانيهما فزيادة (بل) في قوله: (لم يشفق موسى –عليه السلام– خيفةً على نفسه، **بل** أشفق من غلبة الجهال)[6]

لقد كان الدافع وراء هذه الزيادة –كما يبدو لي– هو عدم إدراك الصنف الذي تنتمي إليه هذه الوحدة من جهة، وعدم إدراك العلاقات السياقية بين جمل هذه الوحدة النصية من جهة أخرى؛ ومن أجل ذلك حاول من زاد فيها أن يوجد روابط شكلية ودلالية بين الجمل ليستقيم النص عنده.

ومن أجل إدراك أهمية السياق في ربط أحداث هذا النص بعضها ببعض، وجعله كُلا متماسكا بدأ الشُّرّاح بتبيان سياق النص، بعد أن ثبتت لهم صحة نِسْبَتِهِ إلى عليٍّ –عليه السلام– يقول ابن أبي الحديد: "ونحن نشرح هذه الألفاظ؛ لأنها كلامه –عليه السلام– لا يشكُّ في ذلك مَنْ له ذوقٌ، ونقدٌ، ومعرفةٌ بمذاهب الخطباء، والفصحاء في خطبهم ورسائلهم"[7].

إذن فقد توافر العنصر الأول من عناصر السياق، وهو عنصر القائل بما يرتبط به من معرفةٍ بشخصيته وتكوينه الثقافي، وبقيت معرفة زمن النصّ، ومعرفةُ المتلقّين

---

[6] محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار

[7] ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة 1/ 208

ضرورةً يفرضها التحليل؛ لذا ذكر الشرّاح أنّ عليًّا قال هذا النص بعد مقتل طلحة والزبير[8]، مخاطبًا الحاضرين من القرشيين الموالين لهما[9].

لقد صار بين يدي المحلِّل ركنان أساسيان، بهما يَفْهَمُ هذا الخطاب، ويستطيع بناء علاقاته الداخلية، وأوّل ما يستوقفنا في هذه الوحدة النصية هو الإحالات، وهي "من الوحدات التي تتطلّب –أكثر من غيرها– معلوماتٍ عن السياق؛ لتيسير فهمها... فإذا أردنا أن نفهم مدلول هذه الوحدات –إذا ما وردت في مقطع خطابي– استوجب ذلك منا –على الأقلّ– معرفة هوية المتكلِّم والمتلقي والإطار الزماني والمكاني للحدث اللغوي"[10].

إذن فمعرفة السياق ستسعفنا بمعرفة من يعود إليهم الضمير في قوله (اهتديتم، وتسنّمتم، وانفجرتم)، ومن ثمَّ سيوفِّر السياقُ فَهْمَ المراد من ضمير المتكلّم المجموع في صدر النص (بنا)، أهي صيغة من صيغ تعظيم الذات وتفخيمها؟ أم إنّه ضمير موضوعٌ على أصله في العودة إلى جماعة؟ وإذا كان كذلك فمن هي تلك الجماعة التي يعود إليها الضمير في (بنا)؟

إنّ معرفة السياق تجعل هذا النصّ متماسكا؛ إذ إنّ المرسل واحد، والمتلقي كذلك واحد، ومن ثمَّ فإنّ الإحالات الضميرية الواردة في النصِّ، إنْ كانت ضمائر متكلِّم فهي تعود إلى المرسل، وهو عليٌّ، وإنْ كانت ضمائر مخاطَب فهي عائدة إلى المتلقين من القرشيين الموالين لطلحة والزبير.

أمّا قضية استخدام ضمير المتكلِّم مجموعًا (بنا)، فإنّ الاعتماد على معرفة شخصية قائل النصّ، يفضي بنا إلى ترجيح أنّه ضميرٌ موضوعٌ على أصله في العودة إلى جماعة؛ فالمعهود عن عليٍّ –عليه السلام– التواضع، وعدم تفخيم ذاته، إضافةً إلى أنّ الموقف هنا موقف تبيان وجه الفضيلة، والاحتجاج على الآخر، وليس موقف تفاخر؛ إذ جاء هذا النصّ في أعقاب حربٍ أودَتْ بحياة كثير من المسلمين، وقد رأى عليٌّ أن يوضِّح أحقّيته في الحرب، وأنّه كان على الصواب؛ لذا بدأَ بتذكير المتلقين المخالفين له أنّه سببٌ في اهتدائهم، وعلوّ قدرهم، وخروجهم من ظلمات الجاهلية،

---

[8] انظر: ابن أبي الحديد 1/ 209، والبحراني: شرح نهج البلاغة 1/ 333

[9] البحراني: شرح نهج البلاغة 1/ 333

[10] براون ويول: تحليل الخطاب، ص 35

واشتهارهم بين الناس، وإنّما جاء بالضمير مجموعا؛ لأنّه أراد تذكيرهم –كذلك– أنّه واحد من آل بيت النبيّ، وأنّه مشمولٌ بلفظ (القربى) الذين أمر الله بمودتهم، إذ قال {قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عليهِ أَجْرًا إلا المودّةَ في القُرْبَـى}[11] ولا يكون الخروج لحربه إلا مخالفة لصريح هذه الآية.

لقد اعتمد المرسل في كثير من المواضع على تذكير المتلقين أنّ آل البيت سببٌ رئيسٌ في إخراجهم من ذلّ الجاهلية إلى عزّ الإسلام، ومن تلك المواضع قوله متحدّثا عن آل النبي – صلّى الله عليه وآله وسلّم –: **(موضعُ سرّهِ، ولَجَأُ أمره، وعَيْبَةُ علمه، وموئلُ حِكَمِهِ، وكهوفُ كُتُبِهِ، وجبالُ دينه. بهم أقامَ انحناءَ ظَهْرِهِ، وأذهبَ ارتعادَ فَرائِصِهِ... لا يُقاسُ بآلِ محمّدٍ – صلّى الله عليه وآله– مِنْ هذهِ الأمّةِ أحدٌ، ولا يُسَوَّى بِهِمْ مَنْ جَرَتْ نِعْمَتُهُمْ عليهِ أَبَدًا. هُمْ أَساسُ الدِّيْنِ، وعِمادُ اليقينِ، إليهمْ يَفِيءُ الغالي، وبهم يَلْحَقُ التالي، ولَهُمْ خصائصُ حَقِّ الولايةِ، وفيهمُ الوصيَّةُ والوراثةُ)**[12].

وقد يكون استخدام هذا الضمير (بنا) مجموعًا؛ لتذكير المتلقّين بفضل المسلمين الأوائل – وكان أَوَّلَهُمْ – الذين حَمَلُوا على عاتقهم مسؤولية الدفاع عن الدين الجديد؛ إذ خاضوا الحروب في سبيل نشر الدعوة.

إنّ المعرفة المشتركة بيمن المتخاطبين هي التي جعلت المرسل يتكئ على تاريخه ودوره في إقامة دولة الإسلام، فالمتلقون عالمون بما قدّم المرسل من تضحياتٍ جمّةٍ في سبيل إعلاء كلمة الله، وكان واحدًا من الرجال الذين بهم أخرج الله القرشيين من الذلّ والخوف إلى العُلُوِّ والسيادة،وهو أمرٌ كرَّره المرسل في أكثر من موطن؛ بغية التأثير في المتلقين وإقناعهم بصواب موقفه، ومن ذلك تذكيره العرب بحالهم قبل الإسلام وبعده، في قوله –عليه السلام–: **(أمّا بعدُ فإنَّ اللهَ سبحانَهُ بَعَثَ محمّدًا – صلّى الله عليه وآله– ولَيسَ أَحَدٌ مِنَ العَرَبِ يَقْرَأُ كتابًا، ولا يَدَّعِي نُبُوّةً ولا وَحْيًا، فقاتَلَ بِمَنْ أطاعَهُ مَنْ عَصاه، يَسوقُهُمْ إلى مَنْجَاتِهِمْ، ويبادِرُ بِهِمُ الساعَةَ أنْ تَنْزِلَ بهم، يَحْسِرُ الحَسِيْرُ، وَيَقِفُ الكَسِيْرُ فَيُقِيْمُ عليهِ حتّى يُلْحِقَهُ غايتَهُ، إلا هالِكًا لا**

---

[11] من الآية 23/ الشورى

[12] نهج البلاغة 1/ 29-30

خَيْرَ فيه، حتّى أَراهُمْ مَنْجَاتَهُمْ، وَبَوَّأَهُمْ مَحَلَّتَهُمْ، فاستدارتْ رَحَاهُمْ، واستقامَتْ قَنَاتُهُمْ، وَأَيْمُ اللهِ لَقَدْ كُنْتُ مِنْ ساقَتِهَا حتّى تَوَلَّتْ بِحَذَافِيْرِهَا، واسْتَوْسَقَتْ في قِيَادِهَا، ما ضَعُفْتُ ولا جَبُنْتُ، ولا خُنْتُ، ولا وَهَنْتُ. وَأَيْمُ اللهِ لَأَبْقَرَنَّ الباطِلَ حتّى أُخْرِجَ الحَقَّ مِنْ خاصِرَتِهِ)[13]

وبتبيان هذه الفضيلة ونسبتها إليه تقع الحجة على المخالفين؛ إذ لا يكون لهم عذر في مخالفة من كان سببا في عُلُوِّ قَدْرِهِمْ، بل تكون الحجة عليهم في ذلك، فإنّ جزاء الإحسان لا ينبغي أنْ يكون إلا إحسانا، وبذلك تصل الرسالة إليهم، وإلى غيرهم من المتلقّين، فيفهمون أنّ عليًّا على الحق في قتال أصحاب الجمل.

ثمَّ انتقل المرسل بعد هذه المقدِّمة التي أثبتَ فيها فضله على بقيّة القرشيين من الحاضرين إلى قوله (وُقِرَ سمعٌ لم يفقه الواعية)، وقد لحظ البحرانيُّ انفصال هذه الجملة عمّا قبلها من الكلام ظاهريًّا، فتسلّح بالسياق مرّة أخرى لتبيان وجه الارتباط، فقال إنّ "وجه ارتباط هذه الكلمة مع ما قبلها أنّه لمّا أشار أوّلا إلى وجه شرفه عليهم، وأنه ممن اكتُسِبَ عنه الشرف والفضيلة، وكان ذلك في مقابلة نَفَارِهِمْ واستكبارِهِمْ عن طاعته، أَرْدَفَ ذلك بهذه الكلمة المستلزمة للدّعاء عليهم، كيف لم يفقهوا بيانه للوجوه الموجِبة لاتِّباعه، ويقبلوه بعد أن سمعوه؟

وهذا كما يقول أحد العلماء لبعض تلاميذه المعاند له، المدّعي لمثل[14] فضيلته: إنّك بي اهتديت من الجهل، وعلا قدرك في الناس، وأنا سببٌ لشرفك. أفتتكبّر[15] عليَّ؟ وُقِرَ سمعك! لمَ لا تفقه قولي وتقبله؟"[16]

إنّ هذا الشارح يتوسّل بالسياق في سبيل إبراز تماسك النص، وارتباط أجزائه بعضها ببعض، وقد تمكّن من جعل قوله (وُقِرَ سَمْعٌ لَمْ يَفْقَهِ الواعيةَ) نتيجةً لتذكيره المتلقين بفضيلته عليهم؛ لكونه سببا في عزَّتهم، ذلك أنها خرجت مخرج التوبيخ للمتلقين.

فإن قيل: إنّ السياق الذي توسّل به هذا الشارح مخالفٌ لما عليه الوحدة النصية التي بين أيدينا؛ ذلك أنّ الكلام خرج مخرج العموم، بقوله (وُقِرَ سمعٌ لم يفقه الواعية) فإنّ

---

[13] نهج البلاغة 1/ 199-200، وانظر 1/ 66،

[14] في الأصل: لمثله، وزيادة الضمير لا يخفى خطؤها.

[15] في الأصل: أفتكبَّر.

[16] البحراني: شرح نهج البلاغة 1/ 334

هذا الكلام لا يخصّ مخاطَبا معيَّنا، بل يَصْدُقُ على كلِّ من لم يسمع النُّصْحَ، فكيف نقول –والحال هذه– إنّ هذا الكلام موجَّهٌ إلى الحاضرين من أتباع طلحة والزبير؟

قلنا: لعلَّ مرادَ المرسل من هذا التعميم جَعْلُ هذا الحكم صالحًا لتطبيقه في كلِّ زمان، فكما يصلح أن يُخاطَب به أتباع طلحة الحاضرون، فكذلك يصلح أن يخاطَبَ به مَنْ يأتي بعدهم، إذا انطبق عليهم الوصف نفسه، ويصحُّ أن ينطبق على الأمم الماضية التي لم تتبع الناصحين، ولو أنّه أبرز ضمير المخاطَبين فقال (وُقِرَ سمعُكُم) لفات هذا الغرض الدلالي؛ إذ يكون مختصًّا بالمتلقين الحاضرين آنذاك، ولا يتعدّاهم إلى غيرهم.

ولعلَّ ملاحظة الشمول في المتلقين تفسِّر ما ذهب إليه ابن أبي الحديد، من أنّ "هذه الخطبة خَطَبَها بعد مقتل طلحة والزبير، مُخاطِبًا بها لهما ولغيرهما مِنْ أمثالهما، كما قال النبيُّ –صلّى الله عليه وآله– يوم بدر، بعد قتل مَنْ قُتِلَ مِنْ قريش: (يا عتبة بن ربيعة، يا شيبة بن ربيعة، يا عمرو بن هشام)، وهم جِيَفٌ مُنْتِنَةٌ قد جُرُّوا إلى القليب"[17]

وإذ قد بدأ المرسل بتوبيخ متلقيه الحاضرين، فإنه قد أردف ذلك باستفهامٍ إنكاريٍّ، مفاده أنّ المتلقين لم يسمعوا الأصوات الشديدة التي تزجرهم عن البغي؛ ذلك أنّه عنى "بالصيحة زواجر كتاب الله ومقال رسوله"[18]، وحريٌّ بمن لم يسمع الصوت الشديد ألا يلتفت إلى صوتٍ أضعفَ منه.

ولمّا لم يبلغ المرسل درجة اليأس من المتلقّين، فقد أردف ذلك الإنكار بدعاءٍ يخصّ من بقي في نفسه شيء من خوف الله؛ لعلّه يجذبهم إلى درجة الخائفين من الله فيفيؤوا إلى الطاعة.

وقد رأى البحرانيُّ أنّ وجه اتصال هذا الدعاء (رُبِطَ جنانٌ لم يفارقه الخفقان) بما قبله هو أنّ "ذكر الشريف وصاحب الفضيلة في معرض التوبيخ لمن يراد منه أن يسلك مسلكه ويكون بصفاته، من أعظم الجواذب له إلى التشبُّه به، ومن أحسن الاستدراجات له، فكأنه قال: وكيف يلتفت إلى قولي من لا يلتفت إلى كلام الله؟ لله

---

[17] ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة 1/ 209-210

[18] حاشية الشيخ محمد عبده (3)، نهج البلاغة 1/ 38

درُّ الخائفين من الله المراعين لأوامره، الوجلين من وعيده. ما ضرَّكم لو تشبّهتم [بهم] فرجعنم إلى الحقِّ، وقمتم به قيام رجلٍ واحد؟"[19]

وهكذا يستمرّ البحرانيُّ في تبيان وجه ارتباط هذه الوحدة النصية بعضها ببعض، متوسِّلا بالسياق الرابط بين الأحداث، وهو –بعمله هذا– ينطلق من كون النصّ يسير في خطٍّ ذي اتجاهٍ واحد، يكون مبدؤه من المرسل، ونهايته عند المتلقي.

والذي أراه أنّ هذا النصّ يندرج تحت ما يسمّى بنصوص (المحادثة) التي يتحوّل فيها المرسل إلى مرسلٍ ومتلقٍّ في آنٍ واحد، والمتلقي يتحوّل –كذلك– إلى متلقٍّ ومرسل، وبذلك تتكوّن المحادثة من نصين اثنين، وهذا ما لحظه النصيون في تعريفهم المحادثة بأنها "وحدة تتكوَّن أساسًا من نصين، تنتج عن شريكَي تفاعلٍ مختلفَين"[20]

قلت: إنّ هذا النص ينتمي إلى (المحادثة) المتكوِّنة من نصين، غير أننا لا نجد في هذه الوحدة إلا نصًّا واحدًا؛ إذ نظنّ أنّ جامع النهج ذكر نَصّ الطرف الأول، وهو عليٌّ –عليه السلام– إذ كان مهتمًّا بجمع أقواله دون أقوال غيره، وغيّب نصّ الطرف الآخر، فكان بدهيا أن يبرز هذا النصّ كالمفكّكة أحداثه، كما نظنُّ أننا لو أثبتنا نصّ الطرف الآخر في المحادثة لوجدنا الترابط بين الأحداث النصية المذكورة ماثلا متحقِّقًا.

إنّ نصّ المحادثة هذا يمكن تمثيله بالشكل التالي:

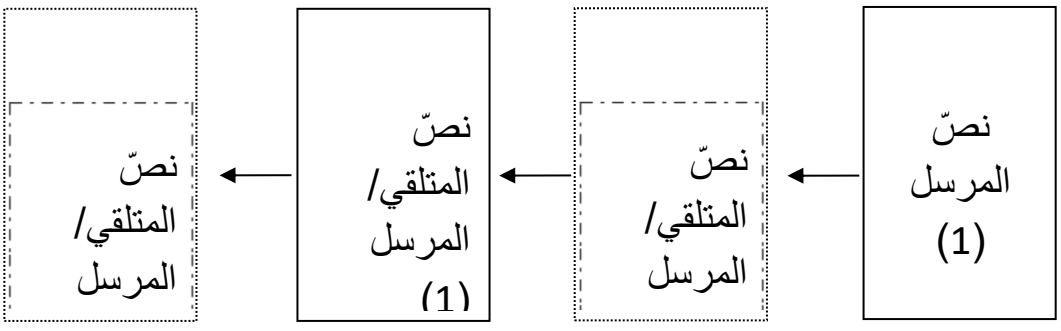

إنّ نصَّ (المتلقي/ المرسل (2)) غائبٌ عن هذه الوحدة النصية، غير أنه يمكننا أنْ نتوقّع ذلك النص الصادر من طرف المحادثة الثاني؛ ذلك أنّ المرسل لمّا بدأ حديثه

---

[19] البحرانيّ: شرح نهج البلاغة 1/ 335

[20] هاينه من وزميله: مدخل إلى علم اللغة النصّي، ص 251

بتبيان فضيلته محتجًّا على المتلقين، مبيّنا لهم خطأهم في إعلانهم الحرب عليه، لمّا فعل المرسل ذلك اعتذر المتلقون عمّا بَدَرَ منهم، محتجّين بأنهم لم يعلموا تلك المكانة والأحقّية للمرسل، وهو اعتذارٌ رَفَضَهُ المرسل، وردَّ على المعتذرين بخطاب التوبيخ والإنكار، وقد يكون المرسل سمع من بعض المتلقين ندمًا حقيقيًّا فأردف توبيخه بما يجذب إليه النادمين الحقيقيين.

وعلى ذلك يكون الجزء الأول من المحادثة قد بُنيَ على النحو التالي:

بيان فضيلة الطرف الأوّل ← اعتذارٌ من الطرف الثاني ← عدم قبول الاعتذار وتقريع الطرف الثاني ← إعلان الندم الحقيقي من الطرف الثاني ← الدعاء للنادمين بالثبات على الموقف.

فإن قيل: إنّ المرسل قد خرج بعد ذلك إلى قضية جديدة، بيّنَ فيها موقفه النفسي من فئة المتلقين قبل بدء الحرب، ثمَّ تحدَّث عن موسى –عليه السلام– مبيّنًا العلّة في إيجاسه الخوف، وفي ذلك كلِّه خروج إلى موضوعات جديدة، فما العلاقة التي تربط الموضوع الجديد بما سبقه من موضوعات؟

قلنا: لمّا رجّحنا انتماء هذه الوحدة النصية إلى صنف المحادثة، فإنه يسوغ لنا تطبيق قوانين المحادثة عليها، ومن بين تلك القوانين تركُّبُ المحادثة من موضوعات عدّة، تجتمع في نهاية المحادثة مكوِّنة موضوعا واحدا مركّبا[21]، وهكذا هي الحال في هذه الوحدة النصية، فهي مركّبة من مجموعة من الموضوعات تصبُّ جميعها في موضوع المحادثة الأساسي، وهو إبراز فضيلة المتكلِّم، وتوبيخ المتلقين لمحاربتهم إيّاه، ولو أننا وقفنا على نصّ الطرف الثاني في المحادثة لتجلّى لنا السياق الرابط بين قضايا هذه المحادثة.

[21] انظر: هاينه من وزميله: مدخل إلى علم اللغة النصي، ص 261